مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية
Eissn:2602-5264 Issn : 2353-0499
المجلد 12/ العدد: 01 (2024)، ص: 746-774

مقام الاغتراب في مدار الوجود والثقافة

مقاربة تأويلية أنطولوجية

The position of alienation in the orbit of existence and culture On to logical interpretation approach

علجيّة مودّع [1]، أحباب أمال [2]

[1]المركز الجامعي مرسلي عبد الله تيبازة(الجزائر)

mouadaaldjia5@gmail.com

[2]المركز الجامعي مرسلي عبد الله تيبازة (الجزائر)

amalahbab8@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2023/11/ 12 تاريخ القبول: 2024/02/26 تاريخ النشر: 2024/03/03

ملخص :إنّ الحديث عن الخطاب الصوفي، هو التفات نحو تلك العوالم الغيبية الوجودية والتي تفرز حتما علائق روحانية بين الذات وحقيقتها، وبين الذات والوجود قصد ملامسة حقيقة فعل التماهي بين الأنا(الإنسان) كجزء والمطلق ككل في بوتقة نورانية أولها تجلٍّ و آخرها اتحاد وحلول.

وبالتالي نسعى من خلال هذه الورقة البحثية إلى تسليط الضوء على تمظهرات الذات (الأنا) في الخطاب الصوفي الجزائري المعاصر و مساءلته ليس من باب طرح خصوصيته فقط كخطاب عرفاني من الزاوية التاريخية الإبستمولوجية، بل تجاوز ذلك نحو إبراز المسار الجيانولوجي لوجودية ذات الإنسان الصوفي في الشعر الجزائري كنموذج و كمثال يرمون إلى تحقيقه من خلال المجاهدات والمكابدات قصد التسامي بالروح و الرقي بالنفس و بلوغ الكمال، مستندين في ذلك على نظرية الإنسان الكامل في فكر الشيخ عبد الكريم الجيلي. وهذا بطرح الأشكاليةالاتية :الى أي مدى استطاعت الخطابات العرفانية الجزائرية المعاصرة ملامسة الحقيقة الجوهرية للذات الإنسانية

في علاقتها الأفقية مع الذات العلية الكلية ؟،وماهي تصوراتهم للكملات الإنسانية من خلال بعض النماذج والنصوص الشعرية ؟.

كلمات مفتاحية : الاغتراب ، التأويل ،الأنطولوجيا، الرمزية ،العرفانية، الصوفية

Abstract To speak for the Sufi discourse means to turn to those invisible worlds of existence that inevitably establish spiritual connections between self and reality, between self and existence, with the aim of revealing the reality of the act of identification between self (human beings). Being) touches the part and the Absolute as a whole in the furnace of light, whose beginning is manifestation and whose end is union and pantheism.

Therefore, through this research work we seek to uncover and question the representation of the ego in contemporary Algerian Sufi discourse, not only to present its specificity as a mystical discourse from a historical epistemological perspective, but also to go beyond in order to emphasize the Algerian The Sufi Genetic Path to Human Self-Existence in Poetry. They serve as role models , drawing on the theory of the perfect man in the thoughts of Sheikh Abdul Karim al-Jili, and achieve this goal through struggle and perseverance in order to sublimate the spirit, elevate the soul, and achieve perfection. , and does so by asking the question: To what extent is contemporary Algerian mystical discourse able to touch upon the truth? What is the horizontal relationship between the nature of the human self and the universal causal self? How do they perceive human perfection through some poetic models and texts?

Keywords: entertainment; Alienation; Interpretation; Symbolism; Mysticism.

*المؤلف المرسل: علجيّة مودّع

1. مقدمة

إنّ أهم ما يستفز النظر النقدي التأويلي هي تلك العوالم الغيبية التي يثيرها الشاعر في نصّه بحثا منه عن الحقيقة فقصدها ومنطلقها الأول هو التعمق في تلك الدلالات الضمنية المفضية إلى التمرد والنفور والثورة من الواقع المترع بالإخفاقات المتوالية، والتي عمّت بصورة أو بأخرى مشاعر الذات الإنسانية، الأمر الذي أسهم في خلق حسّ وجداني تراجيدي عالٍ، في وعي كل إنسان لجأ إلى الكلمة من أجل تفريغ همومه الأنطولوجية ومساءلة مساعيه وأحلامه العرفانية، هذا ما جعله يبعد عن مساره كل ما يحيط به، بعد أن استعصى عليه معرفة نفسه قبل معرفة الآخر ، فمنذ ما خلق الإنسان وهو يحمل فكرة الاغتراب والسبب في ذلك أن هذا العالم يكرس استلابه، ونظرا لهاته الأهمية فقد اهتمت الفلسفات المختلفة بهذه المشكلة.

حيث سعى معظم الفلاسفة جاهدين لتقديم تصوراتهم عن "الاغتراب "مفسرين إياه وفقا لتصورات أيديولوجية فكرية ومنه محاولة ضبط العلاقة بين تيمة "الاغتراب "والفلسفة، حيث أن لهاته المشكلة جذور مرتبطة بالعصور القديمة، والحديثة على حد السواء، وهي بذلك مشكلة قديمة في الزمان والمكان، فقد عانى منها الإنسان القديم كما يعاني منها الإنسان في عصرنا المعاصر، وتختلف درجة المعاناة من هاته الإشكالية على حسب طبيعة الحياة، لذلك نجد معظم الشعراء يصفون مشاعرهم تجاه هاته القضية ضمن نصوصهم الشعرية وعليه نطرح مايلي: ما هو مفهوم الاغتراب؟ وما هي أهم أنواعه؟ ألم يتعرض الإنسان في عصرنا الحاضر إلى الاغتراب مع اختلاف في الدرجة بسبب تغيير طبيعة الحياة نفسها؟ ما هي تجليات الاغتراب في الثقافة الدينية الإسلامية؟ وفي المدونات الشعرية الجزائرية على وجه الخصوص؟.

2. تماهي الذات وسؤال الاغتراب:

يشكل الاغتراب موضوعا جوهريا خلاقا ينبع من صميم التجارب الشعرية المعاصرة، ذلك لكونه مشكلا أساسيا في التركيبة الذهنية الوجودية عند المبدع. وإذا كنّا لا نبالغ إذا قلنا إنّ موضوع الاغتراب كفعالية إبداعية يعكس بالفعل التركيبة الوجودية للمبدع، بل إنّ الذات منذ بداية إحساسها بوعيها الوجودي والكوني وهي تدرك بقوة حقيقة الحياة وصدماتها المفاجئة، وبالتالي ارتبط الانسان بهذه الصدمات بطريقة منفصلة و متصادمة مع ديمومة متغيراتها والتي لا تنفك تشكل عثرة في مسيرة المبدع الرؤيوية ذلك أنّ: الأديب المغترب في زمانه ومكانه ومجتمعه، منتمٍ إلى ذاته وحدها في همه الإبداعي، فذاته هي محور صياغة التجربة النفسية وتشكيلها كتجربة إبداعية خلاقة ومؤثرة، ولولا تلك الغربة وذلك التفرّد لعاد الأدب كلاما من كلام، ما من شكّ أنّ للاغتراب كظاهرة وجودية جذور ضاربة في أعماق النفس البشرية فمنذ أن وطئت قدم الإنسان وجه البسيطة، وبدأت الصراعات الداخلية وما تخلف عنها من شعور بالندم والحيرة، والإنسان يحاول إثبات كينونته باعتباره« دافع من دوافعه الأساسية، يختلف من إنسان لآخر، ومن مجتمع لآخر ذلك أنه يتلوّن بطبيعة صاحبه وبالمجتمع وما يحكمه من أنظمة ومؤسسات وبطريقة العصر وما يحويه من قيم وأعراف ومعارف»(عمر، د.ت،د.ط، صفحة 13).

فقد تحدث جملة من المفكرين والفلاسفة وعلماء النفس والاجتماع عن هذه الظاهرة وأولوها اهتماما كبيرا بالدرس والتحليل، واتفقوا على أنّ لها شكلين، أحدهما: خارجي ومظهري مرتبط بابتعاد الإنسان بصورة فعلية عن وطنه وقومه ولغته، فيصبح غريبا عن داره وأهله وخلانه استنادا لما ورد في معجم العين : « والغربة: الاغتراب عن الوطن، و غرّب فلان عنّا يغربُ غرباً، أي تنحى، وأغربته وغربته أي نحيته: والغربة النوى والبعد.»(أحمد، 2003،ط1، صفحة 271).

وهي غربة طبيعية عامة تفرضها الظروف السياسية والاجتماعية غير المستقرة، وهذا ما أكدّه أيضا "ابن منظور" في لسان العرب قائلا: « الغرب: الذّهاب والتنحّي عن الناس [..] والغربة النزوح عن الوطن والاغتراب.»(منظور، د.ط،د.ت ، صفحة 325).

أمّا الشكل الثاني، فهو الاغتراب الداخلي الفكري، وهو أن يعيش الإنسان غريبا أو متوحدا بفكره ومذهبه في عالم لا يتفق مع ما يدعو إليه، فيحاول بكل ما أوتي من قوة أن يغيره ولكنه لا يتغيّر فينتابه شعور بالغربة الرّوحية والفكرية، وهي في الحقيقة غربة لا تضاهيها غربة، في تأثيرها وشدّتها وعمقها وهذا ما طرقه بصورة موجزة الإمام "الزمخشري" في كتابه "أساس البلاغة" قائلا: « تكلّم فأغرب: إذا جاء بغرائب الكلام ونوادره، ورمى فأغرب، أي أبعد المرمى.» (الزمخشري و تح. محمود باسل عيون السود، صفحة 380).

وهو بذلك مرتبط بكل ما هو غريب ولم يسبق تداوله، وقد عرفه اصطلاحيا الناقد "ريشارد ساخت" بقوله: "أيا كانت الدرجة التي وصل اليها الاغتراب في مسار اعتباره السمة السائدة لهذا العصر فان المؤكد أنه يبدو بمثابة شعار العصر "،(ساخت و تر.كامل يوسف، 1980،د.ط، صفحة 56).

وعليه فقد صارت تيمة الاغتراب ضرورة حتمية في عصرنا الحالي نظرا لمتغيرات الحياة البشرية والطبيعية، كما يقول أيضا: "إن الاغتراب ليس على الاطلاق ظاهرة حديثة إن الاغتراب يبدو أنه يختلف من ثقافة إلى أخرى في المجالات النوعية التي تغترب وفي شمولية عملية الاغتراب واكتمالها، والاغتراب كما نجده في المجتمع الحديث سيكاد يكون شاملا، لأنه يسود علاقة الإنسان بعمله والأشياء التي يستهلكها وبرفاقه وبنفسه "(مجاهد، 1985،د.ط، صفحة 56).

إزاء مثل هذا الوضع الراهن لا يمكن للأدب أن يعيش بعيدا عن هذه المشكلة خاصة أن الأدب مرآة الواقع يعكس تجربة الإنسان الحياتية والنفسية ولا يوجد نص

أدبي واحد لا يحمل بذور الاغتراب في بنياته الداخلية مع التأكيد على أن هذا الأمر يميل نحو التضخم كلما اقتربنا من العصور الحديثة ، وهذا يفسر جزئيا على الأقل تعدد المدارس الأدبية وتنوعها في اتجاهاتها وروادها وتعاملها، حيث أن قسما من هذه المدارس تعاملت سلبيا مع الواقع إما عن طريق الهروب أو عن طريق تغليفه بغلاف تشاؤمي، يجعل الرؤية مستحيلة فمال ممثلو هذه التيارات إلى التقوقع داخل ذواتهم وصنع عوالم خيالية في أدبهم اتخذت أشكالا مختلفة كالتعبيرية والرمزية والدادائية والسريالية وغيرها، "إن هروب الأديب من الواقع و لجوءه إلى عالم الخيال في أدبه وما هو إلا تعبير عن موقف سلبي تجاه الواقع والحياة والناس... كونه كابوسا لا يمكن إزالته على الرغم من محاولات فضحه وتعريته والحض على الثورة ضده إذا كان الاغتراب سمة عامة للأدب العالمي عامة "(غسان، 2005، صفحة 1).

من الطبيعي أن يكون أيضا سعة أدبنا العربي المعاصر الذي ينتجه الأدباء العرب الذين يعانون من خيبات الألم المتتالية، فيصابون بالإحباط والقهر ذلك لأن عالم الكاتب صورة عن نفسه المشتتة وعليه نتوصل لأن الكاتب والشاعر العربي تعرض لعدة أنواع من الاغتراب التي يعاني منها الانسان مثل: اغتراب الذات والاغتراب عن الآخر، والاغتراب الناتج عن قلق الموت، ومع كل هذا نرى أن أدباءنا العرب يحاولون إيجاد حلول وسطية للخروج من الاغتراب.

3-أنواع الاغتراب وعلاقاته بالذات والأخر والموت :

1-اغتراب الذات: ونلاحظ في هذا النوع من الاغتراب أنه يولد مع الانسان منذ معرفته للوجود، "فيبدأ بمحاولة تشكيل عالمه الخاص عن طريق الأحلام تارة وتارة أخرى عن طريق العمل للوصول إلى هذا العالم الذي تسوده علاقات الود والمحبة والتسامح والتعاون، لكن الإنسان يكتشف أنه كلما تقدم في هذا الطريق ازداد بعده عن تحقيق أهدافه وتبدأ أحلامه، بل تحطم على أرض الواقع، وتبدأ رحلة اغترابه عن كل ما يحيط به وعن ذاته نفسها"(غسان، 2005، صفحة 2).

فاغتراب الذات ينشأ عن التناقض بين الداخل داخل الإنسان وبين العالم الخارجي وبين الواقع والخيال، بين ما هو عليه وما هو يحلم به بين ما يمتلكه وما يطمح إليه بين نظام العالم ونمط تفكيره وهكذا.

2-الاغتراب والآخر: لا يمكن فصل اغتراب الذات عن علاقة الإنسان بالآخر، لأن الإنسان لا يستطيع أن يربط نفسه كلية بالآخرين ما لم تكن لديه ذات أصيلة يمكنها أن تربط بينهم "أما إذا اعتقدت الذات فإن بوسع الإنسان أن يرتبط بالآخرين ولكن ارتباطه بهم سيفقد العمق، والمغزى لجعل هذه العلاقة مثمرة وإيجابية وفي اطار هذه العلاقة ينظر الإنسان الى الآخرين على أنهم أعداء يحاولون نزع حريته"(غسان، 2005، صفحة 3).

ان الشعور بالاغتراب بين الفرد والآخر يجعله سببا لتولد العنف فيقف الإنسان في مواجهة الآخرين ضمن معركة لا وجود لها، إما أن يسحق أمام الآخر أو ينبسط.

3-الاغتراب والموت : من خلال ما تحدثنا عنه في أنواع الاغتراب نتوصل إلى أن الاغتراب يلحق بالإنسان في حياته فعلا، ولكن الاغتراب عند الموت ينتج عن إشكالية لابد للإنسان فيها "إن خطر الموت يمنع الإنسان من القيام بأعمال كان يود القيام بها لو لم يكن موجودا في حياة لا أمل فيها، فيحل اليأس والاغتراب"(غسان، 2005، صفحة 5).

ان معرفة أنه لم يعد هناك أمل في شيء وأن كل لحظة تقربنا من الموت، وأن الزمن يهرب منا كل ذلك يؤدي إلى فقدان الأمل في المستقبل بالنسبة لنا، فإن رؤية الموت فيه تجعلنا نتخيل استحالة كل إمكانية في هذا المستقبل في الواقع إلى كل رغبة إنسانية يكون المستقبل ساحة تنفيذها، وهنا يضطر الإنسان لإلغاء المستقبل مما يجعله ذا رغبة غير نسبية أو بالأحرى يصير الاغتراب مطلقا.

3. الاغتراب في الثقافة الدينية:

يعدّ التصوف الأرض الخصبة التي نما فيها "الاغتراب" كمفهوم وكاستخدام أيضا، فقد تعامل معه الصوفية بمعانيه المختلفة وعايشوه تجربة وجدانية وجودية عالية وبأبعادها الدينية والميتافيزيقية المتعددة، وهذا ما أكدّه الشاعر الصوفي "عفيف الدّين التلمساني" أثناء تعريفه للاغتراب الصوفي قائلا:" إنّ كل من انفرد بوصف شريف دون أبناء جنسه يسمى في اصطلاحهم غريبا"،(الدين، د.ت،د.ط، صفحة 487)ويرى "ابن عربي" –من جانب آخر- أنّه يمكن أن نطلق لفظ "الغربة" عن الحال ند الصوفيّ في رحلته وتطلعه إلى الله عزّ وجلّ، فيقول: "الغربة تطلق بإزاء مفارقة الوطن في طلب المقصود، ويقال الغربة عن الحال في حقيقة التعوّد فيه، وغربة عن الحقّ من الدهش عن المعرفة"،(عربي، 1999،ط1، صفحة 292).

وهي إشارة واضحة إلى أنّ الصوفيّ يظل في غربة دائمة وحيرة أبدية أثناء تطلعه وبحثه الدائم عن حقيقة الوجود و تجليات الحق في كل الخلق، ولا يمكن أن يصل إلى هذه الدرجة ما لم يجاهد ويكابد ويعاني وينقطع تمام الانقطاع عن ملذات الحياة ومتاع الدنيا وأن يعزل نفسه بالخلوة والهجرة، كما أنّ أقصى أشكال الغربة هي غربة العارف وغربة العارف هي غربة الغربة، فهو بذلك غريب عن الدنيا والآخرة وفي ذلك يقول "ابن قيّم الجوزيّة": « وأمّا غربة المعرفة فلا يبقى نسبة بينه وبين أبناء جنسه إلاّ بوجه بعيد، لأنه في شأن والناس في شأن آخر، فغربته غربة الغربة.»(الجوزية، 1991،د.ط، صفحة 225).

هذا هو مجال بحثنا في المدونات الشعرية محل الدراسة، أن نبحث عن تجليات الاغتراب المعرفي والفكري والوجودي عند شعراء الجيل الجديد ممن كتبوا في نصوصهم الصوفية عن أحوالهم و مواجيدهم العرفانية أثناء غيابهم عن الواقع المتأتي بحثا عن عالم آخر بديل يجد فيه المرء نفسه بما يعزز دوره كذات فاعلة تقصد وتتهيأ إعادة توجيه المدار نحو ما هو مأمول، وتبعا لذلك، يعيش المبدع حالة اغترابه

بعد ان يدرك تمام الإدراك أنه أصبح طريدة لواقعه المأزوم، وليس غريبا أن يشغل الشاعر نفسه بالحديث عن أزمات واقعه وهو من ابتلى بفقد كينونته وهويته كذات تبحث دائما عن مستقر لها في خضم هذا العالم المليء بالأسرار والألغاز.

4. فيض التلقي وسؤال الاغتراب الوجودي في الشعر الجز ائري (نماذج مختارة):

إنّ الغربة كهاجس بقيت تلاحق مخيلة الذات الشاعرة في رحلة بحثها الدؤوبة عن ملاذ للفرار من حتميات هذا الواقع المفروض، فحتى الشاعر الصوفي لا يختلف عن الشاعر العادي الذي فقد هويته ووطنه، فهو أيضا قد عاش هذا الضياع النفسيّ أثناء رحلته نحو العالم الباقي والأبدي ، إنّه ذلك العالم النوراني الذي تتجلى فيه الأرواح بصورة تفوق كل الأوصاف فالعالم الواقعي يتحول تبعا لذلك في ذهنية الشاعر إلى سجن تسيره جملة من الأنظمة والقيود المفروضة، فنجده يسعى بكل ما أوتي من قوة للفرار منه واستبداله بعالم آخر أين تعيش النفس طمأنينتها و راحتها الدائمة، يصادفنا ونحن نسائل هذه القضية بالتحليل والمناقشة ما كتبه الشاعر المتألق "مصطفى محمد الغماري" في أشهر دواوينه "أسرار الغربة" والذي تطرق فيه إلى تيمة الاغتراب الوجودي بطريقة فنيّة انسيابية عالية، عكست بالفعل عصارة تجاربه الرّوحية ومعاناته الصادقة وإحساسه القوّي الذي بلغ أعلى وأسمى درجات فناء الذات في الموضوع، يتجلى هذا التصوير الفنّي بوضوح لمّا يفجر طاقاته التعبيرية قائلا:(محمد، د.ت ،د.ط، صفحة 13).

بعيدٌ عنك ...راحلتي تجوب الليل والسفرا

تآكل خطوها في الغربة السوداء ...واندثرا

بعيد عنك...لا نايا فيسعدني، ولا وترا

تماوج كرمه الصوفي في الأعماق وازدهرا

لعلّ سياق اللفظة "بعيدٌ" بقرائنها الدلالية تحيل مباشرة إلى فكرة الضياع النفسي والتشتت الداخلي الذي يعيشه الشاعر جرّاء الغربة السوداء في انعدام أي

بصيص لنور الأمل في غياهب الليل الحالك، محاولة منه لاختزال حالة الآسى والرفض الدائم في فضاء الحضور المؤسس من حالة الغيبة المسلطة عليه والمتوارى به عن إمكانية تأكيد الذات لذاتها في مسيرتها المعراجيّة نحو منتهى المطلق الأزلي وعند عودته إلى حال الصحوّ من هذه الرحلة الغيبية القاتلة والآسرة له في الوقت نفسه، يصرّح قائلا:(محمد، د.ت ،د.ط، صفحة 35).

"ها عدتّ يا نبع الهوى من غربتي

شوقا، وعاد بي الهوى لرحابي

لا الدرب جفّ... ولا عناقيد الضحى

صلبت على شفة الدّجى الصخاب."

يشعرنا هذا المقطع الشعريّ ونحن بصدد مساءلته بتعالي الشحنة الشعورية المعبر بها عن قمة الشوق والحنين الذي فطر قلب الشاعر عندما عاد من غربته، فسياق الأفعال في مقصدها للمعنى المسوق له تنبض بحيثيات هذه التجربة الرّوحية المنفطرة وتقدم أدق تفاصيلها، في إشارة واضحة ومباشرة من الشاعر لتصوير قصية اغتراب الذات والنفس الإنسانية، وما تعانيه من آلام في رحلة بحثها الدائم عن حقيقتها وسط هذا الوجود الأبي، هذا ما يسعى الشاعر إلى تجسيده وتصويره عبر استخدام الألفاظ القوية والعبارات الجزلة في قولــه:(محمد، د.ت ،د.ط، صفحة 39).

"أنا في الوجود قصيدة...ما غرّدت

بسوى السلام حروفها الخضراء

أنا في الوجود ملامحي و رجولتي

ودمي و كبري للسلام فداء."

إنه اعتراف واضح وجليّ بحق الذات ككينونة في وجودها الظاهري، بل وفي تجليها في كل موجود حقيقي، في صورة تدعو في باطنها وفي أصلها للسلام والنقاء الرّوحي. كما نجده في مقام آخر، يعبرّ بإحساسه المرهف، وبشاعريته الخاصة والخالصة عن

عمق معاناته جرّاء مرارة اغترابه الرّوحي والوجودي قائلا:(محمد، د.ت ،د.ط، صفحة 41).

"أنكرت في ليل الوجود ملامحي

وأراك وجهي الطهر يا سمحاء

صدى الزمان... فكل لون غربة

وعلى الملامح تجثم الأز راء

إلاّ هواك...عرفته ..فضممته

ورعاه مني الجفن يا سمراء."

فما يعيشه الشاعر في هذه الأسطر الشعرية، هي مرارة غربته كعارف، وهي غربة الغربة لأنه –كما سبق وأن ذكرنا- يعيش غربة الدنيا والآخرة، لابد له تبعا لذلك من جهاد طويل قصد اجتياز كل المسافات الحائلة بينه وبين مراده الأزلي، الذي لطالما رجاه وتمناه، وهذا ما جعله مغتربا اغترابا كونيّا ووجوديّا مزدريا لنفسه ومنتقضا لعالمه، فتحولت هذه الهواجس تبعا لذلك إلى جروح عميقة شقت صدر الشاعر، ما زادها عمقا وألما هو فرط الشوق والحنين الدائم إلى ذلك المبتغى الأزلي والحقيقي الذي أضاء بنوره ظلمة حياة الشاعر كذات تبحث عن إجابات لتلك التساؤلات التي ما انفكت تراوده في صحوه وفي محواه، ونلمس ذلك بوضوح في قولـه:(محمد، د.ت ،د.ط، صفحة 42).

"رفّ الحنين ... مدى بجرحي ممعنا

وزوارقي في شاطئ هيماء

إن قلت ... آن لي الإياب يهيم بي

سفرٌ ... ويلفظ زورقي الارساء

أبدا ... أضل إليك يا بنت الضحى

ظمآن ...تحفر في دمي الأصداء."

تبين هذه الأسطر الشعرية الدرجة التي بلغها الشاعر في معاناته الرّوحية داخل عالمه الباطني الإنساني، أين الشعور العميق بالضياع النفسي والتيه والحيرة الوجدانية، فلا مكان لإرساء الزورق فالحنين والشوق والعطش الرّوحي قد حفر طريقه في كيان الشاعر تجاه ذلك الأفق المبين، ويواصل قائلا ضمن السّياق ذاته:(محمد، د.ت ،د.ط، الصفحات 42-43).

"في روعة الذكرى ... تلوب مشاعري

عطشى ... وتزهر في دمي الاهواء

وعلى محيط الصبر تبحر غربتي

فترودها الأضواء والأضواء

أملاذ طهري ...آه كم في خاطري

من رغبة جفت ... وبحّ النداء."

لقد خرجت هذه الكلمات من صدر الشاعر وهي ملتهبة بحرقة الغربة والفراق، كأنها تنزف دما من جرح غائر في أناه الداخلية، وكأنّ الدوال قد امتزجت بدموعه فنراه كيف ينقلنا إلى متناقضات الحياة ومفارقاتها في غياب استقرار سكينته عند حدود مبتغاه، فمن جرّاء هذا الاغتراب الرّوحي والوجودي تحوّلت ألفاظ قصائد الشاعر وعباراتها إلى وسيلة فعالة عكست بالفعل محنة الذات في صراعها الأبدي مع الكون والوجود قصد إدراك كنهها و كنهه معا، ومهمة الشاعر في هذا المجال أن يسبر غور هذين الكونين (الذات والوجود) من خلال تأويلهما، فالشعر في أسمى غاياته يحاول دائما تأويل وتصوير حالة تبديد الذات في تضاعيف الشجن الذي ألهب أحزان الشاعر وأثار حنينه إلى مجد نبعه الأصيل، ولكن رغم كل ذلك يبقى بصيص الأمل يطارد مخيلة الشاعر ومن ذلك قوله:(محمد، د.ت ،د.ط، الصفحات 54-57).

"إذا أيها الشوق أزرع فيك

نشيدي، وأعصر مواليه

أراك ... فتشرق في كل درب

ورودي ... وتخضل أعماقيه

فإن أتعب الطين ... هذا الزمان

فلن يأكل اليأس آماليه."

يستخدم الشاعر في هذا المقطع العبارات الدالة على الأمل وعلى الشروق الجديد الذي تتحول فيه أحوال الشاعر نحو ما يريد وما يطمح، فمهما لاقى الشاعر الإنسان في حياته من متاعب التغريب والتهميش ومن معاناة الشوق والفقد، فلن يقف هذا حاجزا أمام تحقق رؤاه و آماله، وبالتالي فإن أي تجربة شعرية لا ترتكز في قواعدها الأساسية على رؤى إبداعية ذات زخم رؤيوي وجودي، وثراء معرفي فنّي، ومرجعية فكرية عميقة، ستفقد شرعيتها وأثرها الجمالي وتطورها المواكب لعجلة الزمن المتغيرة والمتطورة، وهذا يعني أنّ الاغتراب كمرجعية أنطولوجية وإبستيمولوجية هو الذي منح اللغة شرعيتها عن الشاعر –محل الدراسة- من خلال اتساع أفقه المعرفي، هذا ما أكسبه فاعلية الحضور الإبداعي المؤثر والمحلق في سماء الخلق الفنّي المتميز، فالاغتراب كتجربة نفسية روحية قد شحنت النص الشعري بالطاقات العاطفية المتأججة والمشاعر الداخلة المتوترة، ما منحه فعالية الحضور الفنّي المؤثر والمتوقد في الوقت ذاته، ولا زالت الأحرف السمحاء تدغدغ سرائر الشاعر التي استوطنها الحزن جراء الغربة والفراق عندما يقول:(محمد، د.ت ،د.ط، صفحة 69).

"وإن قلت : أين الحب؟ يمخر في دمي

سفين الهوى ... تخضرّ أبعاده معنى

وفي شاطئ العرفان ... تبحر غربتي

وترسو على أبعاد واحتنا « عدنا»."

هذا دليل قاطع على أنّ ما ينشده الشاعر " مصطفى محمد الغماري" في هذه القصائد هو ذلك الاغتراب العرفاني الذي يندد فيه ودائما بانعتاق ذاته من قيود

الثوابت نحو محبة المطلق، فبقدر ما تبيّن الذات عن صفاء روحها بالقدر نفسه يقوى إثبات مبدأ الحقيقة المطلقة، المحايثة لاستعادة الانسان قيمته في هذه الحياة الفانية، كمقابل حقيقي لذلك الاغتراب الوجودي الذي يتشظى بصورة واضحة في ثنايا أغلب قصائد الشاعر وفق ما تمليه طبيعة العقل الإنساني في مسعاه لتحقيق الفعل الذي يرضي رغبته في التناهي بالوصول إلى صفات الحق تبارك وعلا روحا وفعلا، وبهذه النظرة الوجودية العميقة، التي تعكس الصلة القديمة والأزلية بين الشاعر كذات والاغتراب كموضوع، فيواصل " الغماري" وصف رحلته العرفانية المليئة بالضياع والتيه والحيرة، فها هو ذا يخاطب الشاعر الإسلامي الكبير " محمد إقبال" بنبرة خطابية مليئة بالأسى والمعاناة، ويشاركه مرارتها قائلا:(محمد، د.ت ،د.ط، صفحة 82)

"كلانا يا غريب الدار رفض يمضغ الألما

كلانا في الدروب الخضر إصرار ... يزيغ دما

وأبعادٌ على أهدابها تنهل أمطار

وتزهر باللقاء المطلق الرّيان أقمار."

هنا يطالعنا الشاعر بنبرة خطابية تكتنفها وتملؤها الحساسية الاغترابية والتي تكشف عن إيحاءات عميقة ومبتكرة في الوقت ذاته كما أنها تشي ببعد جمالي روحي مفتوح الرؤى والدلالات يوحي تمام الإيحاء بالرفض القاطع للواقع الماثل الذي رسمت تفاصيله تلك الآلام والتضحيات، أين للإصرار والعزيمة الدور الفعّال في شدّ الهمم من أجل مواصلة الصراع النفسي والاحتراق الداخلي جراء الحرمان من نور الكشف ومنتهى اليقين الإلهي، الذي سيصل إليه حتما مهما كله الأمر من مجاهدات ومن معاناة وفي ذلك يقول:(محمد، د.ت ،د.ط، صفحة 95)

"سأجني اللذة الخضراء من ألمي

ومن شفتي ... نداءات إلهية

ومن قممي ... مشاوير نضالية

لأغبق في ربيع غدي

وبين ضلاله سورة...

وأهزم كل أسطورة".

معنى ذلك، أنّ حدّ الكمال في صفاء سريرة الشاعر، مرهون بتقديم التضحيات وبتزكية النفس، من أجل الوصول إلى قمة القمم، وهي مرتبة الكشف فلم يجد الشاعر خيرا من اللغة كي يتوارى خلفها في مواجهة خطايا الحياة والواقع، والتي تصبح في نظره كالأسطورة أي نعم لها ماضٍ وتاريخ عظيم وعريق، ولكن لا مستقبل لها أمام القيمة الحقيقية للأفق المثالي والقدسيّ، فيقدم لنا الشاعر تبعا لذلك تصويرا جليا لهذا الغياب الرّوحي والعرفاني قائلا:(محمد، د.ت ،د.ط، صفحة 98).

"يغيب الأين ... واللاّ أين في أبعادها السود

ويمطرها الزمان المر شلاء الأغاريد

تناست وجهها ... فغنّت لمعبود ... ومعبود".

قدّم لنا "الغماري" في هذا المقطع الشعريّ صورة فنيّة مميزة عبر استخدام الرؤى الفكرية الميتافيزيقية المبؤرة والرموز الصوفية العميقة والمكثفة، ليحكي لنا حقيقة صراعه الباطني مع الأين كوجود ظاهري واللاّ أين كعالم آخر مطلق تلخصه أبعاد لا متناهية وآفاق غير محدودة، ولا نبالغ إذا قلنا إنّ "الغماري" من أكثر شعراء الجزائر المعاصرين احتفاء بهذا الأسلوب الشعري الممتنع والذي يغترب به عن ذلك التلقي السطحي المباشر -أو لنقل بتعبير آخر- الضحل، إنه قوة إبداعية متميزة لا تقبل إلا بذلك الفعل القرائي العميق الذي لا يتغير في بحثه المباشرة في طرح المفاهيم وإنما قصده المضامين ومضامين المضامين، فاغتراب الشاعر باللغة الصوفية كأداء فنّي هو جزء من اغترابه الوجودي كفعل وكتجربة عرفانية روحية الذي يميل فيه إلى تصوير عمق المكاشفة والتأمل الوجودي الشاسع شساعة الرؤيا الممتنعة بقوة الإرادة بين

الظهور والغياب، وبين القبول والرفض، وهذا ما يندد به دائما وبخاصة عندما يقول:(محمد، د.ت ،د.ط، صفحة 99).

"وجلت صيحة عذراء قالوها ...وما انهزموا

سنرفض وجه غربتنا ... سنرفضه ولا ندم

ويورق رفضنا ... ولتسقط الأشباح و النظم

ونهتف يا جراح الكبر يا إخوان ... فالتئموا

مشاوير الغد الخضراء ... مشرقة بها القيم

وواعدة بها السمحاء ... ولتندك يا صنم".

يطالعنا الشاعر هنا، بنبرة خطابية قويّة تعكس بالفعل أوجاعه الأليمة لمّا استحكمت فيه أوجاع الاغتراب الرّوحي المضني، وكذا المعرفي على السواء، فيهتف مصرّحا برفضه القاطع للحالة الشعورية القاسية التي اعترت بواطنه الداخلية والتي أدّت به إلى طول الحيرة والتيه، كما عبّر عن رفضه لذلك الواقع الظاهري الذي استحكمت فيه الأشباح والأنظمة السائدة والمفروضة عليه بالقوة، فيحاول بهذه الثورة الفكرية و العرفانية أن يترجم حقيقة صراعه مع غربته الوجودية، وكذا ضياعه النفسي متنبئا بغد لا تشرق فيه إلا شموس القيم النبيلة والصادقة والتي ستهزم بالإرادة كل صنم عتيد، كما يؤكد هذا الرفض قائلا:(محمد، د.ت ،د.ط، صفحة 127).

"على دمي الرّف يا حسناء ملتهب

فعانقي الموجة الخضراء ... والتهي."

لقد اكتنف هذا المقطع الشعري حضور أنثوي بارز (حسناء) أو بعض المواصفات الجمالية الدالة عليه والتي تنم عن ذلك الإحساس العالي والرقيق، الممزوج بنبرة ملتهبة وعميقة عمق الجرح والألم والمعاناة، نتيجة تمرد الشاعر ورفضه الدائم لكل القوانين والثوابت. ولكن سرعان ما يطلق أسلوبه الاعتيادي المزهو بومضات

الأمل اختزلتها عبارة (موجة خضراء) والتي عكست بالفعل عمق الحالة الوجدانية عند الشاعر وغناها الرّوحي جراء اغترابه الفكري والوجودي عن العالم الماثل الذي لطالما فرض نفسه عليه بطريقة إكراهية تتنافى مع معتقداته الأنطولوجية و العرفانية. وبذلك يصرّح قائلا:(محمد، د.ت ،د.ط، صفحة 136).

"مبحر يا غربة الناي علة ذكراك فكره

موغل في عمقك الناري طوفانا وجمرة."

ووفق هذا التصوّر، فإن الاغتراب الفكري والوجودي الذي يعيشه شاعرنا هو بالتأكيد اغتراب ناجع فنيّا، خاصة عندما يرتقي بمداليل القصيدة ويعمق نواتجها التأويلية وفواعلها الرؤيوية والنفسية والشعورية، فتأتي تبعا لذلك التجربة الرّوحية الإنسانية حيّة نابضة بالشعرية في المتن النصّي، لاسيما حينما يركز على تجارب الضياع والتيه والحيرة المؤثرة والعاكسة بالفعل لوعيه كذات فاعلة بالحق والقوّة، وهذا يعني أنّ "مصطفى محمد الغماري" قد اغترب عن الغربة نفسها حتى يجد خلاصه من مفسدات الدنيا ومساوئها في انفصاله الدائم عن الوجود والواقع حتى لو كان انفصالا فكريّا عرفانيا تاما فهو خير له من الرضوخ والاستسلام، وأقوى ما وجدنا من نماذج شعرية ساءلت قضية الاغتراب في الساحة الأدبية الجزائرية المعاصرة الشاعر الفحل "يوسف الباز بلغيث" وبالخصوص في ديوانه الرائع "نبضات الاغتراب" إذ يقول في مقدمته: "إذاك كانت حاجتي لكل شهقة، لكل زفرة تعاون القلب كي ينبض كما عادة القلوب لكن الانتظار، وحمى الشعر يسابقانه، ليزيد في نبضه، فتتعمق التنهيدة ويتفرّس الإحساس الملهوف وجه قلبه الملتهب، فتعبر النبضة كيانها المألوف إلى حضن الاغتراب."(يوسف، 2001،د.ط، صفحة 6).

وإذا سلّمنا بهذه الحقيقة، معناه أنّ الذات المبدعة تعيش في صمتها الصارخ، ولجّة موجها الهادئ، نقيض ما في راهنها وواقعها الماثل، وعكس ما يحيط بها، فهي تعسى في كل محاولة إبداعية للتعبير عن مبتغاه في الانفكاك والانفلات من إسار جحيمها

الأرضي أملا بالتحليق في فضاءات أنقى لتجد نفسها أخيرا في مواجهة مصيرية مع ذاتها ومع الآخرين باستشارة المشاعر، وأعمق المشاعر التي يمكن ان يستثيرها الشاعر هو إحساسه الدائم بالغربة والضياع النفسي، وهذا ما يترجمه شاعرنا "يوسف الباز لغيث" قائلا:(يوسف، 2001،د.ط، صفحة 20).

"جاوبيني يا عيوني...
ما عسى يُبكي الغريب؟
وتلاحين الأماني
شرقت قبل المغيب
وشروق النفس أمسى
.. .وتغاريد الأريب
... وتهادي الملهمين
... وانتكاسات الحنين
كلها أضحت حكايا – صدقوني
بعدما غاب الحبيب."

تبيّن هذه الأسطر الشعرية – كما يظهر من دوالها ودلالاتها عمق الأسى جراء حرقة الشوق وبلاء الحنين، فيتقاسم الشاعر مع حروفه مصيره المحتوم كغريب في هذا الوجود، في مواجهة أبدية مع الواقع المحتوم بحثا عن ذلك الأفق المظِل جراء مغادرة الحبيب الأظل، باعتباره اختزالا فعليا لحالة الاستقرار الرّوحي والطمأنينة الشعورية عند فك شفرات الكون والوجود والحقيقة، فوجد الشاعر نفسه جرّاء ذلك وحيدا بين التيه والضياع في سراديب المجهول والاهتداء بأحلام تباريق التجلّي الرّوحي، وهذا قمة ما يمكن أن يعيشه الشاعر في لحظات غيابه الذاتي والوجود، إذ تحوّل إلى هاجس ما انفك يطارد خوالجه الداخلية والباطنية، وفي ذلك يقول:(يوسف، 2001،د.ط، صفحة 34).

"سلام الغريب سلامٌ مخيف *** وشوق الغريب غرامٌ عنيف

وليس جراح الوفا بعارٍ *** ومن قال: إن الزهور لا تعيف

ومهما يطول الشتاء بدوحي*** لسوف يطِلّ ربيع عفيف

ويرسل طيف المحبة يوما*** فيقصي السراب، وينفى النزيف"

فلا يشرب من المنهل العذب، ولا يستأنس بإشراقة الربيع العفيف سوى ذلك المغترب الذي جاهد من أجل التقرب، لذلك فاغتراب الشاعر ناجم عن ذلك الفراغ الوجودي والوجداني الناتج عن توالي الخيبات الناتجة عن إحباط إرادته وفقدانها، فاتسمت حياته تبعا لذلك بالخواء المخي الذي لم يعثر فيه على ذاته المتشتتة والتي يشبهها بالسراب الظاهر والمختفي في الوقت ذاته. فما يعانيه من آلام الشوق والحنين قد أنساه إحساسه الفعلي باللوم والعتاب وما جرى منه وعليه جراء الهجر والغربة فألم الشوق لا يضاهيه ألم ومنه قوله:(يوسف، 2001،د.ط، صفحة 65)

"علام الهجر يا صاحبي وهيّا*** نداعب نسمة الحب الزكيّة

أتخشى عن هجرتك من عتابي*** وما تخشى لهيب الشوق فيّا؟

وتأسر في رياض البدر حينا*** وحينا تكسر الغصن النديّا

أحبك قد ألفتك في زمان*** فمالك بالجفا تقسو عليّا"

يتخلل هذا المقطع الشعريّ عبارات دالة على الغربة الوجودية بكل ما تحمله الكلمة من معنى في مثل قوله: (الهجر، لهيب الشوق، البدر، الجفاء، القسوة، الحبّ...) وكلها ألفاظ تدلّ في مضامينها على عمق الحالة الوجدانية المعاشة والمحسوسة والتي أصبحت عبئا أمام انعتاق ذاتية الشاعر والتي تتغيا القبض على حقيقتها كوجود باطني كان قد ألفه الشاعر في زمن ما، ومنذ ذلك الوقت والمعاناة والمقاساة من مرارة الجفاء والبعاد مازالت تراوده وتختزل إحساسه العالي والعميق بالغربة، فشاعرنا المغترب لا ييأس أبدا، مادام له هدفا ساميا يسعى دائما في الوصول إليه، وإن خاب سعيُه مرة، فلديه العزم الكافي لإعادة الكرّة ألف مرة أخرى، ولذلك

نجد أنّ أغلب الشعراء الذين يعيشون هذه الحالة والذين جعلوا من قصائدهم الشعرية فسحة للتعبير عنها، يأملون في غد أكثر إشراقا ونورا، فتقصر المسافات ويصبح البعيد بالفعل قريبا قرب الأنا من أناها، وقرب الوجود من حقيقة وجوده وقرب الكيان من كينونته، وهذا ما منح تجربة شاعرنا العرفانية التكثيف الرؤيوي والعمق الدلالي وفاعلية التأثير وعمق الإيحاء، وهذا ما يتجلى بوضوح خاصة في قوله:(يوسف، 2001،د.ط، صفحة 79).

"لو كان البحر كأشواقي، إذ يلقى الشمس

كما دوما، صفراء يعلّلها حبّي

لا تنسى الطير مواعيدي

لن تشكو اليوم تماسينا

اسمع يا صاح تقاسيمي:

"الصبح يعود لأعشاشي.. من بعد غياب."

وبهذا الإحساس الشعوري العميق وصف لنا الشاعر صباحه المليء بالأمل والحياة الجديدة، التي عادت من بعد غياب طويل مليء بالجروح والمآسي، والتي اهتز لها قلبه نتيجة الحرمان الذي غيّم عليه، لتفتح بذلك آفاقا شعورية ووجودية جديدة، تعيد الشاعر طبقا لذلك لكينونته الضائعة ما بين الغربة والتعدد، هذا ما فجره شاعر الكلمة الحرّة " محمد علي سعيد" قائلا في قصيدته التي يصوّر لنا فيها مرارة هذا الاغتراب العرفاني والاختفاء الروحي قائلا في إحدى أجمل قصائده:(علي، د.ت ،د.ط ، صفحة 48).

"أختفي من الظلال البعيدة

لا شيء يدرك هذا العذاب

أتحرك في فلك الشمس

من يمنح الضوء كي أستطيع الكلام

باسم التي

وهبت غابة الانتماء

أريج التعدد..

معنى الحُطام..."

فما بين انفتاح العبارة الصوفية على المطلق مقابل انصداع الذات، وما بين انفجار دلالة الألفاظ والعبارات والانغلاق على الذات قهرا بفعل الغربة والاختفاء يحصل الارتباك والحيرة، الأمر الذي استدعى من الشاعر طلب بصيص نورٍ قصد الوصول روحيّا و عرفانيا إلى الوجود المطلق، أملا منه في الخلاص الأبدي بعد تمام اللقاء والاتحاد، إنها ببساطة طيوف الأمل بقيت تلاحق ذات الشاعر في كل مرحلة من مراحل جهاده جراء غربته الرّوحيّة، فيستطيع تبعا لذلك أن يتكلّم باسمها بعدما كان غريبا ومختفيا عن ظاهره الآني في دلالته العميقة المرتبطة بالباطن الكوني، وسرعان ما تغيب عنه هذه الومضات الكشفية فيجد نفسه وحيدا بعيدا عن أناه بعدما تهيأ له أنه قد عاد إليها بعد طول الغياب، قائلا:(علي، د.ت ،د.ط ، صفحة 39).

"إننا توأمان

نرفع صمت الدموع

إلى عرشها

ونحب الّذي

جاء من ساعة

ومضى

ترك القلب

في حلم خارق

وبكى."

والحال هنا، أنّ الوعي الكشفي الاغترابي عند الشاعر ضمن ما تطرحه العبارة الصوفية في أسطره الشعرية يبين أن هناك اندماجا باطنيّا واتحادا وجوديّا بين ما يتأمله الشاعر وما هو واقع فعلي، فما سبق وأن عاشه الشاعر من لقاء وقرب قد مضى وزالت عنه كل أحوال المواصفات العرفانية التي حققته، وبمجرد أن تركه مبتغاه الأزلي في حلم خارق كأنّ الذي كان ما كان، وكأنّ الذي عاشه هو مجرد طيف عابر يتأرجح بين الحضور الأبدي والغياب المتناهي، وبين الصمت والكلام يصف الشاعر هذه الموجة العرفانية مستخدما في ذلك العبارات الصوفية الملائمة لهذا النوع من الطرح الابستيمولوجي والذي عكس بالفعل عمق تجربة الشاعر وسداد فكره، ومن ذلك المنبر يواصل قائلا:(علي، د.ت ،د.ط ، صفحة 63).

"يمرّ بلا ظللٍ

وينقط كلّ الفلاة

بلطف نداه

يمرّ كما لم يكن

إنّه عبق الكون صوت الإله."

لا شكّ في انّ التجربة الاغترابية التي عاشها الشاعر قد تجاوزت كل المعاني السطحية والبسيطة لمفهوم الغربة والبعاد، إنّه تيهٌ و سفرٌ ومعاناةٌ بين الوجود الظاهر الجلّي والغياب الباطني الأزلي، فاغترابه هنا يصبّ في دائرة الضياع الأنطولوجي الأبدي في سماته التواالديّة المستمرّة، شاحنا بذلك نصه بكل تلك الطاقات التعبيريّة المكثفة والمضاعفة التي تزيد من نواتج الرؤى عبر استنطاق الدلالات المفعمة بالتعدد الاحتمالي والقوة التأثيرية الفاعلة، وبخاصة في قوله: (عبق الكون، صوت الإله)، فقيمة الإبداع الحقيقية تكمن في ذلك الاستخدام الخاص للغة المعبر بها عن صدق التجربة الرّوحيّة والفنيّة، عبر دقة تصوير الإحساس الوجداني العالي والشعور الانفعالي المتأجج أو من حيث استخدام الأوصاف التجريدية لإظهار عمق الحالة

العرفانية، التي يعيشها الشاعر إزاء ما يقاصيه من ويلات الغربة والضياع الوجوديّ والمعرفيّ وفق نموذج تساندي متكامل ومتجدد في الوقت ذاته، وهذا ما يعبر عنه صراحة في قصيدته "للشعر" قائلا :(علي، د.ت ،د.ط ، صفحة 73).

"وللشعرّ راحة الفقراء

ورائحة الغائبين،

له أن يفجر ناري

وان لا يجيء

إذا خبتِ

الشعلة العارفة."

تتطابق روح الرؤيا الشعرية عن الشاعر –محل الدراسة- مع بغية بلوغ المقام، ما بين حاجة المطلب واستجابة الحق يكمن الموقف من الوجود في أنماط حياته بالغربة، وسعيه الدائم لتحقيق ما يرغب فيه في رحلة بحثه الدائم عن الاستقامة والحقيقة المطلقة، وفي ذلك يقول في قصيدته الرائعة "تراتيل غربة"(علي، د.ت ،د.ط ، صفحة 92).

"وأنتِ وراء الجدار الثقيل

تسلُلُ أزمنة في انتباه الضياء

على فجره موعد لا يجيء

ويغرقه الورد هل سيفيق الغمام

تخثر قلبي وفجّرني المستحيل."

يرتّل الشاعر الصوفي "محمد علي سعيد" في مقطع هذا إحساسه المرير بعد هذا الضيم من الغربة الوجوديّة التي آل إليها، حتى فجرّه المستحيل كنوع من أنواع التعبير المجازي الذي عادة ما يلجا إليه هذا النوع من الشعراء قصد تكثيف وتهويل رؤاهم الفكرية، جراء ما يعيشونه من حياة موزعة بين ضمير المتكلم بغيبتهم عن

واقعهم، وضمير التعظيم في رغبتهم الملحّة لحضورهم بالقلب مع الحق. ويتجلى هذا بوضوح في قوله: (تخثر قلبي و فجرني المستحيل)، فما يعيشه الشاعر كإنسان أثناء بحثه عن ثباته واستقراره الرّوحي قد تحوّل إلى هاجي تناثر وانتشر بطريقة لطيفة روحانية في لا وعيه الباطني، فأصبح غيابه الوجودي الذي يعيشه اختزالا حقيقيا لمعنى التناثر والتعدد الباطني وفي ذلك يقول:(علي، د.ت ،د.ط ، صفحة 94).

"وغاب

ولا فيء في كل فيء

تناثر في كل شيء..."

ففي كل موجود يظهر للشاعر كذات عارفة سراب حقيقة وجوده، وكأنها جدلية أنطولوجية بين فعلي الحضور والغياب في شكل تجريدي عشوائي الرؤية، وهذا نوع من أنواع الاغتراب الفكرّي والوجودي الذي خيّم على أغلب القصائد الموجودة في ديوانه "روح المقام" التي تتبدى لقارئها منذ الوهلة الأولى على أنها إبداع راق يحمل في طياته مضامين كلها إصرار وعزيمة وثورة على الثوابت المادية، ويحيل الذائقة القرائية التأويلية إلى مداليل تحمل في باطنها ترجمة حقيقية لصراع داخلي مزدوج ما بين ارتباط الذات بأشكال الوجود الظاهري المتعلقة بفكرة تجلي الحق في كل الخلق، وبين عرض حالة انفصال الشاعر عن واقعه متخذا بذلك موقفا اجتماعيا تحكمه ثنائية الرفض والتجديد، وبين هاته وتلك تتشكل الرؤيا الفكرية والجمالية عند شاعرنا، عن طريق شحن نصوصه بجملة من الطاقات التعبيرية والصور الإبداعية الخلاقة والتي تنبض بعمق الحس الشاعري و تتغيا الإيحاء والانفتاح الدلالي، وكنموذج عن فعلية ارتباط الذات الشاعرة بأسرار الوجود الإلهي ومعاناتها معه جرّاء الغياب والبعاد يظهر جليّا في قوله:(علي، د.ت ،د.ط ، صفحة 97).

"ونرسل من منافينا نسيمًا*** إلى نجمٍ تعمّد في لظاها

يزفّ إلى الغياب المرّ وحيّا*** من الأنوار خلّده سناها

تقاطر ثم أسرى في وريدٍ*** إلى النفخ الإلهي اجتباها

تغيب الشمس إن غبنا ومنّا*** طريق النّور لو رحنا لتاها."

أوّل ما يلفت انتباهنا في هذا المقطع الشعريّ هو التنوع الرّفيع والمميز للدلالات والفواعل الرؤيوية عن طريق استخدام الشاعر لجملة من الألفاظ المفتاحية المكثفة بالدلالات الصوفية غير المتناهية مثل قوله: (المنفى، النجم، الوحي، الأنوار، الإسراء..) وكلها دوال تحمل في طياتها مداليل شعرية ذات أبعاد عرفانية، وبالتالي شكلت تبعا لذلك رؤية فكرية متلاحمة ذات شرارات تأثيرية عالية، عن طريق كشف حالته في رحلة بحثه المستمرة عن مبتغاه العلوي، والذي وصفه بالنجم المنير على اعتبار نظرية تجلّي الكل في الجزء المعبرة عن حالة التراسل الفكري والتواصل الرّوحي، ما أظهر قدسية العلاقة العميقة بين الذات و الحق ذلك الأفق اللامتناهي رغم دوام الغياب والتيه، والذي تسبب في حزنه الدائم وفي ذلك قوله:"(علي، د.ت ،د.ط ، صفحة 100).

"أيّ حزنٍ يا غريب الدّار

في عينيك قل لي؟

أي حزنٍ يرفع الآلام روحا

فتغني."

فالشاعر هنا، لا يصبوا في هذا المقام إلى ذكر الحزن بمعناه المأساوي البسيط، وإنما ما يقصده هنا أعمق من ذلك بكثير؛ فما يرمي إليه الشاعر هو ذلك الحزن الممزوج بنبرة الشك المؤدية إلى الحيرة والتساؤل عن حقيقة الحال التي وصل إليها جراء المجاهدة والسعي الدائم لفك شفرات الحقيقة، إلى درجة أنّه هو أيضا قد بدا له هذا الحزن غريبا فتساءل عن حقيقة هذا الشعور الغريب الذي ينتابه، فهو حزن فوق الحزن، إنه ضيق قد عكس بصورة جدّية مرارة الضياع والتشتت وهذا ما يؤكده قائلا: (علي، د.ت ،د.ط ، صفحة 100)

"أيّ حزنٍ يجعل الذكرى حريقا

والندى بعض التمنّي

يا غريب الدار قل لي

أيّ حزن في المتاهة

وغيابات السؤال."

إنّه يعيش قمة الضياع والتيه الحقيقي في متاهة بحثه عن أجوبة لأسئلة ما انفكت تراوده بين الفينة والأخرى، إنها متاهة البحث عن البديل النموذجي إمّا لواقعه الرديء أم لذاته الأبيّة المتعطّشة لبلوغ الآفاق العلية، فهو حوار داخلي في شكل تساؤل باطني يتضمن في فحواه عصارة معاناة الشاعر تجاه مبتغاه المطلق الأزلي، فما لحق إليه الشاعر من شعور قويّ بمرارة الحيرة والقلق، جعله يرسم معاني كلماته وعبارته بالمقاصد والمرامي الصوفية، في مضامينها الدالة على فعل التجلّي الكشفي الباطني طمعا في تجاوز الحقيقة الواقعية في مقابل بلوغ الحقيقة الكونيّة .

5. خاتمة:

- يعتبر الاغتراب تعبيرا عن الوجود الإنساني كونه يعكس الفاعلية الوجودية للمبدع.

- يحمل الاغتراب في الثقافة الدينية معان تتمثل في أن الإنسان غريب في هذه الحياة الدنيا، والغريب من ترك أهله لأجل نصرة دينه .

- هناك علاقة بين الاغتراب والأنا وبين الاغتراب والوجود وبين الاغتراب والموت، كلها تعود لفكرة جوهرية وهي رفض الواقع ومن ثم الرغبة في التغيير.

- التجربة الشعرية الاغترابية تجعل الشاعر يتجاوز حدود الزمان والمكان إلى جانب ميتافيزيقي متعالٍ.

- إن الفنان والأديب ابن واقع معين، وهو بذلك يعمل على تقويمه والتعامل معه وفق درجة إبداعية توافق فهمه له؛ وهذا ما استخلصناه من خلال تجربة "مصطفى الغماري" و"يوسف الباز بلغيث ".

- تعتبر تيمة الاغتراب سمة جلية في الشعر الصوفي كونها تعبر عن انغلاق على الذات مقابل تعدد دلالاتها وألفاظها .

- كلما تعامل الشاعر مع الناس تفهم واقعه وأتقن لغة الحياة وأحاط بأسرارها، واغتنت جمالية اللفظ لديه فالأدب يعكس الواقع.

- يعتبر الشاعر الصوفي الجزائري خير من عبر عن واقعه؛ فجاء إبداعه ناتجا عن تأثره به وبمصير الإنسانية.

-تعتبر تجربة "محمد علي سعيد" تعبيرا عن خطوط وتصورات وحركات تصوغ لنا تجربة شاعرية حافلة بالمعاني والأسئلة التي لا تنتهي+

6. قائمة المراجع:

-ابن القيم الجوزية. (1991،د.ط). *مدراج السالكين بين منازل اياك نعبد واياك -نستعين* . لبنان : دار الجبل .

-ابن عربي. (1999،ط1). *اصطلاحات الصوفية*. القاهرة: مكتبة مدبولي.

-ابن منظور. (د.ط،د.ت). *لسان العرب (مادة غ رب)*. بيروت: دار صادر.

-التلمساني عفيف الدين. (د.ت،د.ط). *منازل السائرين الى الحق المبين*. تونس: دار التركي.

-السيد غسان. (23 ديسمبر, 2005). الاغتراب في أدب زكريا تامر . *مجلة الموقف الأدبي* ، صفحة 1.

-الغماري مصطفى محمد. (د.ت ،د.ط). *أسرار الغربة* . الجزائر: الشركة الوطنية .

-الفراهيدي الخليل ابن أحمد. (2003،ط1). معجم *العين*. لبنان: دار الكتب العلمية.

-بقرورة عمر. (د.ت،د.ط). *الغربة والحنين في الشعر الجزائري الحديث*. الجزائر: منشورات جامعة باتنة.

بلغيث يوسف الباز. (2001،د.ط). *نبضات الاغتراب*. الجزائر: اتحاد الكتاب الجزائريين.

جار الله محمود بن عمر بن أحمد الزمخشري، و تح. محمود باسل عيون السود. (بلا تاريخ). *أساس البلاغة*. لبنان: دار الكتب العلمية.

ريشارد ساخت، و تر.كامل يوسف. (1980،د.ط). *الاغتراب*. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات.

سعيد محمد علي. (د.ت ،د.ط). *روح المقام أو سقط المنفى وهبوب الجهات* . الجزائر : دار خلدونية .

مجاهد عبد المنعم مجاهد. (1985،د.ط). *الانسان والاغتراب*. دمشق: مطبعة الانشاء.

المقالات :

السيد غسان. (23 ديسمبر, 2005). *الاغتراب في أدب زكريا تامر . مجلة الموقف الأدبي* ، صفحة 1.